الشيخ علي الشرقي وقصيدته المفقودة
في رثاء آية اللّه العظمى الشيخ الآخوند
محمد كاظم الخراساني (قده)

قدم لها وصححها
الأستاذ طالب علي الشرقي

الشيخ علي الشرقي وقصيدته المفقودة في رثاء آية اللّه العظمى الشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني (قده)

قدم لها وصححها
الأستاذ طالب علي الشرقي

بعد مرور مائة عام من فقدانها ظهرت القصيدة التي هزت الوسط الادبي في النجف ، وكانت ترجمة رائعة للاثر الذي تركه رحيل المرثي بها آية الله العظمى الشيخ محمد كاظم الخراساني (صاحب الكفاية) .

مائة عام خلت وروح الشاعر العبقري الشيخ علي الشرقي تبحث عن فريدته الضائعة ، فلقد اختفت بعد القائها ، ولم يبق في ذاكرة الجيل الذي عاصرها غير مطلعها وبيت آخر وحيد .

وعندما طبع الشيخ علي الشرقي ديوانه (عواطف وعواصف) عام ١٩٥٣م لم يذكر من هذه القصيدة شيئاً .

ويوم جمع الاستاذان ابراهيم الوائلي وموسى الكرباسي ، شعر الشرقي في ديوان جديد، وحققها ذكرا مطلع القصيدة وبيتاً واحداً ، وقالا : نظمت بمناسبة وفاة الشيخ محمد كاظم الخراساني زعيم المشروطة في النجف عام ١٣٢٩هـ ولم نعثر على القصيدة سوى مطلعها وبيت آخر .

وعندما كتبت عن الشيخ الشرقي كتاباً بعنوان ذكرى الشرقي رائد التجديد في الشعر العربي الحديث) وطبع عام ١٩٩٠ ، بذلت جهداً استثنائياً في البحث عن قصيدة الرثاء هذه فلم اصل اليها . وعاودت الكرة في التقصي والسؤال عنها عند ترجمتي للشيخ علي الشرقي في كتابي المطبوع (آل الشرقي ...) فلم أتوصل الى شيء . ولكن : ألم تكن رحمة الله واسعة ؟ قال تعالى ((ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون)) الحجر ٥٦.

لقد ظهرت القصيدة مطبوعة في كتاب (مرآة الشرق) لمؤلفه الشيخ صدر الاسلام محمد أمين الامامي الخوئي .في صفحة ١٠٩٠ من المجلد الثاني المطبوع في مطبعة ستاره في قم المقدسة سنة ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦م . ولم يكن الكتاب قد وصل الى النجف بعد . ولكن الاستاذ كاظم عبود الفتلاوي صور القصيدة من مصدرها الجديد وقدمها لنا .

والشاعر الشيخ علي الشرقي : هو ابن النجف الاشرف ، ولادة ، ونشأة وتربية ودراسة وعطاء ومدفناً .

وهو شاعر وابن شاعر ، وفقيه عالم وابن فقيه مجتهد ، شرب من فراتي علم وأدب من جهة الاب ومن جهة الام ، فهو من أسرة علمية أدبية قال فيها الشيخ جعفر

محبوبة في ج٢ من (ماضي النجف وحاضرها) : (من بيوت العلم والادب ، فكانوا مناهل العبقرية ورواد الفضيلة وعشاق الكمال ...) وتربى بين اخواله آل الجواهري العلماء والادباء . وعرف منذ حداثة سنه بالذكاء والفطنة ، وكان من خيرة تلامذة اساتذه (الاخوند الخراساني) ومن انصار حركة المشروطة في النجف .

حظي بدراسات عدة ، فوظفه ارباب العلم والادب بصفات الصفوة ، فقال احدهم : انه صاحب رسالة أدبية او صاحب مدرسة في الحياة . وقال آخر ان سر الابداع والخلق في شاعرية الشرقي هي قوة التحرر الفكري ...

وقال ثالث ... رحم الله الشرقي فكم مرة تحولت امثلته قصائد واغاني واناشيد طافت العالم العربي وتجاوزت حدوده .

ومن الجدير بالذكر أن النجف في الثلث الاول من القرن الرابع عشر الهجري كانت عشاً لمئات بل الوف الادباء والشعراء المجددين ، فحين يحتل الشيخ الشرقي مكان الصدارة بين اقرانه ، فهذا يعني انه من الافذاذ وعلى درجة عالية من الاقتدار والتفوق . ولم يكن الشرقي شاعراً فحسب – على الرغم من امتلاكه ناصية الشعر وريادة حركة التجديد فيه – بل كان متعدد المواهب ، وفي بحثي الموسوم بـ (محاور الابداع في عطاء الشيخ علي الشرقي) المنشور في كتاب (مدرسة النجف الاشرف ودورها في اثراء المعارف الاسلامية / بحوث المؤتمر العلمي الاول المعقود في كلية الفقه للمدة من ١٦- ١٧ نيسان ٢٠٠٦م) قلت : ان الشرقي ظاهرة حضارية بمواهبه وابداعاته المتعددة ، فاذا ذكر الشعر العربي الحديث في العراق كان شروق الشرقي علة في نهاراته .. ولذا عرف الشرقي شاعراً فقط ، والمتحقق انه شاعر مجدد وناثر بليغ وسياسي مجرب وفقية ماض ومؤرخ بارع ونسابة ثبت وجغرافي مبدع .

ولو قلبت ديوان شعره لظهرت لك الملكة الشعرية المتكاملة في قصائده التي نظمها وهو في سن مبكرة . وقد وضع لاوائل قصائده تاريخاً ، فكانت قصيدة مناجاة النجوم بتاريخ ١٩٠٨م ، وقصيدة (حقيقة الحال) بتاريخ ١٩٠٩م ، وقصائد اخرى بهذه الاوقات ، أي انه اصبح شاعراً مسموعاً وهو إبن ست عشرة سنة .

أما المرثي ، فهو المصلح المجاهد ، رائد الحركة الدستورية في ايران والعراق ، ومجدد علم الاصول في مفتتح القرن العشرين الميلادي آية الله العظمى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني . قال فيه تلميذه الشيخ علي الشرقي لقد كان الخراساني آية عصره ، وكان من الافذاذ ، وهو حجة في الفلسفة النظرية وعلم الاصول ، وكان يحف بمنبره في مسجد الهندي (في النجف) ثلاثة الاف طالب فيهم المجتهد او المرشح للاجتهاد ، كانت له الروعة والهيبة ، واذا انتهت محاضرته ، وانتشر تلامذته تقف حركة المرور ، فلا ترى غير تموج العمائم البيض والسود ... .

وكان الاخوند سياسياً صلبا ، وزعيما لحركة (المشروطة) وكان في خلاف مع شاه ايران الذي وقف ضد الحركة واستعان بالجيش الروسي ، ولما تطورت الامور ... دخلت الجيوش الروسية الاراضي الايرانية حتى وصلت الى مدينة قزوين وباركت الحكومة الانكليزية اجراءات روسيا واعلنت – بدورها – عزمها على احتلال الجنوب

الايراني بحجة حماية الطرق التجارية . وفي يوم ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٢٩هـ علم الاخوند بالتطورات اذ وصلت برقية من رئيس مجلس النواب الايراني تخبر بهجوم الروس على قزوين ، فهاج المسلمون في العراق . وبعد ايام أصدر الشيخ الخراساني فتوى بالجهاد... .

استيقظ الخراساني على عادته قبل فجر اليوم الموعود للسفر لاداء صلاة الليل ثم جلس يتهجد في محرابه حتى اذا ما قارب الفجر احس بضعف مفاجئ ثم اعتراه تعرق في كل بدنه ، والم شديد في قلبه ، فادى صلاة الصبح بصعوبة وكان حور الطيب متأخراً ... واعلن خبر وفاته في يوم الثلاثاء ٢٠ ذي الحجة ١٣٢٩ هـ المصادف ١٢ كانون الاول ١٩١١م. ويقول كمال السيد ، معرّب كتاب ((الاخوند الخراساني)) لمؤلفه محمد رضا السماك : حصلت الوفاة في ظروف غامضة ، وبعد ايام من مغادرة (مس بيل) (موظفة الاستخبارات البريطانية) مدينة النجف . وتحوم الشبهات حول الخادم الخاص للخراساني الذي اصبح مع اولاده تحت رعاية الاحتلال الانكليزي في العراق . وهو ما يعزز نظرية اغتياله مسموماً عشية توجهه الى جبهات القتال لطرد الاحتلال الروسي من ايران ... واقيمت له مجالس التأبين في كل أقطار العالم الاسلامي ورثاه الشعراء ومن بينهم الشاعر المبدع المجدد الشيخ علي الشرقي ، رثاه بقصيدة رائعة وهو لم يزل في العشرين من عمره ... .

((مرثية الشيخ علي الشرقي))

سل الجيش جيش الدين أين اميره ... اذا نعشه ما بينهم ام سريره ؟

لقد سحروا (كذا) [١] بحراً من البكا ... يعر [٢] على الشعرى العبور عبوره

وعهدي لفتح الثغر يسري مشيعاً ... فكيف لفتح القبر اضحى مسيره

لئن عثر الاسلام فيه فانه ... بصيرته مفقودة وبصيره

لقد بات هذا الدين والنصر وحده ... فكيف غدا [٣] رهن الصفيح [٤] نصيره

أناعيه لا تفصح ، بجنبك شامت ... وقل قد عرى الراوي وغاض غديره [٥]

فيا غائباً اضحى لفرط رجائنا ... به كإمام العصر يرجى ظهوره

ويا صارم الاسلام قد فل حده ... فبعدك ، هل من صارم نستعيره

ويا (لعليم) [٦] يملأ العين حشمة [٧] ... سوى شخصه حتى اقول نظيره

(ويمشي) (٨) في ابراده الطهر رافلاً ... مباركة ايامه وشهوره

أرى في الحشى وجداً [٩] تأجج ناره ... لعل سراج العلم أخمد نوره

هلمـــوا يتـــامى العلـــم نحـــو ضـــريحه (نكاشـفه) [١٠] عـن حالنـا [١١] مـا يثيـره
بكينـــاك حـــامي الـــدين هـــذا عـــدونا وقـد بسـمت حـول (الثغـور) [١٢] ثغـوره
أيـــا غيـــرة الاســـلام غيـــرك البلـــى وهـذي [١٣] خيـول الشـرك اضـحت نفيـره
عظـــيم علـــى الاســـلام بعـــدك خوفنـــا وأعظـــم منـــه للعـــدو ســـروره
اتـــاه نـــذير الخطـــب منـــك ومـــا انجلـــى لـــه الصـــبح حتـــى قـــد أتـــاه بشـــيره
يهـــدده [١٤] بـــالموت شخصـــك يقظـــة ويفزعـــه فـــي النـــوم طيـــف يـــزوره
بعينـــك نـــور مـــن جبينـــك ســـاطع يشـــع وفـــي طـــي الضـــلوع ســـعيره
ســـمعن ديـــار العلـــم عجـــت بصـــيحة عليـــك فعجـــت بـــالزواهر نـــوره
سيصـــبح فـــي ارض تشـــاد [١٥] قصـــوره بهـــا قـــد رجونـــا ان تشـــاد قبـــوره
فبعـــدك قـــد امســـى كثيـــراً قليلـــه وقـــد كـــان فـــي قبـــل قلـــيلاً كثيـــره
تـداعى [١٦] بنـاء الـدين يـا حصـن عـزه وقـد كـان محميـاً و (عزمـك) [١٧] سـوره
فمـا (نسـج) [١٨] داود (بـأمنع) [١٩] جانبـا من (أسمك) (٢٠) بل مـا انت الا زبـوره
ونحـن (قبيـل) [٢١] عـز [٢٢] فيـك كبيـره وقد عاش في (باغي) (٢٣) يديك صغيره
ولـــيس يحـــل الـــدرس بعـــدك لامـــرئ حـرام علـى كـل (الانـام) [٢٤] حضـوره
فهـــل منبـــر لـــم يـــذكر اســـمك فوقـــه وهـــل مـــن كتـــاب مـــا حوتـــك ســـطوره
اذا مـــا اهتـــدى الســـاري فانـــت منـــاره وان اظلـــم النـــادي فانـــت منيـــره
ســـما اول الاســـلام عـــزاً بأحمـــد وفيـــك تعـــالى للســـماء [٢٥] اخيـــره
أتتـك (ذوو) [٢٦] التيجـان (ترجـوا رجاءهـا) فـــلا ملـــك الا الرجـــاء وزيـــره
لقـــد غرســـوا حـــب القلـــوب بحبـــه [٢٧] فـــلا قلـــب لا يحـــوى ولاه ضـــميره
كأنـــك فـــي صـــدر الانـــام مـــودع والا فلـــم ضـــاقت عليـــك صـــدوره ؟
فحيـــا الحيـــا قبـــراً تضـــمن ماجـــدا (بكتـــه) [٢٨] رعايـــاه وحـــن ســـريره

ويبدو لي ان قصيدة المرحوم الشيخ علي الشرقي الرثائية هذه قد أخذت منه حال انتهائه من قراءتها في حفل تأبيني او مجلس فاتحه اقيم للفقيد الشيخ محمد كاظم الخراساني ، ولم يكن يملك نسخة اخرى منها ... .

ولو نظرنا الى (النماذج) المنشورة من خط يد الشيخ علي الشرقي وخاصة في الصفحات الاخيرة من كتابه ((الالواح التاريخية)) الذي حققه وطبعه المرحوم الاستاذ موسى ابراهيم الكرباسي ، لوقفنا على ما نعتقده سببا لكثرة الاخطاء في هذه القصيدة التي تفضل سماحة الشيخ صدر الاسلام محمد أمين الامامي الخوئي ونشرها في كتابه القيم (مرآة الشرق) وهو اول باحث يكشف عنها غبار النسيان بعد قرن كامل من كتابتها . وكم كان مفيداً لو ذكر كيفية وصوله لها او وصولها اليه ومن هو الشخص الذي احتفظ بها كل هذه السنين ؟ على ان ذلك لا يقلل من جهده وامانته العلمية في اظهار هذه القصيدة . ومع كل ما تقدم فليس بمقدور كثير من النساخ قراءة خط الشيخ الشرقي قراءة صحيحة بدون تصحيف وتحريف ، لكونه من الخطوط الرديئة والمبهمة احياناً . اما بخصوص اخفاء القصيدة فالاحتمال هو : ربما عتم على القصيدة الوضع الذي خلقه الصراع بين كتلتي المشروطة بزعامة الخراساني والمستبدة بزعامة السيد اليزدي وكان المستبدون اقوى شوكة واكثر عدداً .

ولعدم وجود نسخة (مخطوطة او مصورة) من القصيدة عمدنا الى ذكر ما اعتقدنا انه الصحيح .

هوامش البحث :

١- في الاصل (بالضعتل) ولم اجد له معنى ولم اهتد الى الاحتمال الصحيح .
٢- في الاصل (يغر) والسياق يتطلب ان تكون كلمة (يعز) .
٣- في الاصل (غدى) والصحيح (غدا) .
٤- في الاصل (الصفح) فلا يستقيم بها الوزن .
٥- في ديوان الشيخ علي الشرقي ص٩٠ ورد : (فقد عري الوادي وغاض نميره) وفي الاصل (غاضل) .
٦- في الاصل (ويا العالم) ولا يستقيم بها الوزن .
٧- في الاصل (حشمته) ولا يستقيم بها الوزن .
٨- في الاصل (مشى) ولا يستقيم بها الوزن .
٩- في الاصل وفي هامش (٢) عرف المؤلف كلمة (وجد) فقال : أي الغضب .
١٠- في الاصل (فكاشفه) والمعنى يتضح بما ذكرنا .
١١- في الاصل (عن حان ما) ولا معنى له ورأينا الصواب فيما ذكرنا .
١٢- في الاصل (الثغر) ولا يستقيم بها الوزن .
١٣- في الاصل (وهذا) والسياق يقتضي لفظ (وهذي) .
١٤- في الاصل (يهدد) ولا يستقيم بها الوزن .
١٥- في الاصل (تشاء) والصحيح ما ذكرناه بوجود القرينة في نفس البيت .
١٦- في الاصل (تداعي) ولا يستقيم بها المعنى .
١٧- في الاصل (وغرمك) والصحيح ما ذكرناه .
١٨- في الاصل (نسبح) والسياق يقتضي ما ذكرناه .
١٩- في الاصل (بالسنسع) وليس لها معنى وقد اثبتنا ما راياه صحيحاً .
٢٠- في الاصل (السمك) والصحيح ما ذكرناه .
٢١- في الاصل (قليل) ولا تؤدي المعنى المطلوب واثبتنا ما رأيناه صحيح .
٢٢- في الاصل (عر) ولا معنى لها .
٢٣- في الاصل (بغي) ولا يستقيم بها الوزن والمعنى .
٢٤- في الاصل (الامام) ولا يتحقق بها المعنى المطلوب .
٢٥- في الاصل (للسمأ) ولا يستقيم بها الوزن والمعنى .
٢٦- في الاصل (ذوي) .
٢٧- في الاصل (ترجى رجائها) واثبتنا ما رأيناه الصواب .
٢٨- في الاصل (بكيه) والصحيح ما ذكرناه .